انطباعات ومشاهدات في منطقة عسير وما جاورها عامي

(١٤٤٠ – ١٤٤١ هـ / ٢٠١٩ – ٢٠٢٠ م)[*]

أ.د. غيثان بن علي بن جريس

(*) دراسة منشورة في كتاب : القول المكتوب في تاريخ الجنوب، لغيثان بن جريس، (الطبعة الأولى)(الرياض: مطابع الحميضي، ١٤٤٢هـ / ٢٠٢١م)، (الجزء التاسع عشر) ص ص ٥١٦ – ٥٢٩ .

رابعاً: انطباعات ومشاهدات في منطقة عسير وما جاورها عامي (١٤٤٠-١٤٤١هـ/ ٢٠١٩-٢٠٢٠م). بقلم. أ. د. غيثان بن علي بن جريس.

م	الموضوع	الصفحة
أولاً:	مدخل:	٥١٦
ثانياً:	بعض الانطباعات والمشاهدات في جنوب المملكة العربية السعودية (١٤٤٠-١٤٤١هـ/٢٠١٩-٢٠٢٠م)	٥١٦
	١- الأمراض والأوبئة	٥١٦
	٢- متغيرات اجتماعية	٥٢١
	٣- متغيرات تعليمية وثقافية	٥٢٤
	٤- متغيرات اقتصادية	٥٢٥
	٥- لمحة من جهود الأمير تركي بن طلال آل سعود في تطوير منطقة عسير	٥٢٦
ثالثاً:	وفي النهاية	٥٢٩

أولاً: مدخل:

من يطالع العديد من مؤلفاتي خلال الثلاثين عاماً الماضية يجدها تحتوي على بعض المشاهدات والانطباعات التي رأيتها وسمعت عنها أو عرفتها في عموم الجنوب السعودي (تهامة والسراة). وفي هذا المحور أدون بعضاً مما شاهدته في هذه البلاد عامي (١٤٤٠-١٤٤١هـ/٢٠١٩-٢٠٢٠م) ولا أدعي أنني سجلت كل ما يعيشه الناس ويمارسونه في حياتهم اليومية، لكنني أزعم أنني ذكرت نماذج من حياة الناس العامة، مع الإشارة إلى آثار بعض المتغيرات السلبية أو الإيجابية على الأرض والناس[1].

ثانياً: بعض الانطباعات والمشاهدات في جنوب المملكة العربية السعودية (١٤٤٠-١٤٤١هـ/٢٠١٩-٢٠٢٠م).

١- الأمراض والأوبئة:

إن الذاهب في أرجاء بلاد تهامة والسراة، والزائر للمستشفيات والمصحات الطبية والنفسية والتأهيلية يجدها مليئة بالمرضى الذين يعانون من أمراض متنوعة. والقطاعات الصحية الحكومية والأهلية لا تدخر جهداً في الارتقاء بالناحية الصحية،

(١) ما تم رصده جزء من تاريخ الناس الحضاري، ونحن معاشر الدارسين والباحثين يجب علينا أن ندرس حياة مجتمعاتنا، ونذكر الحلول لبعض القضايا التي تظهر في بلادنا.

وخدمة المرضى بكل أصنافهم وأعمارهم وظروفهم. كما أن الأسر والبيوت لا تخلو من مشاكل صحية لبعض أفرادها كباراً وصغاراً[١].

والخوض في باب الأمراض في جنوب المملكة العربية السعودية أو في البلاد السعودية عامة يحتاج إلى عشرات الكتب والبحوث العلمية، وهذا ليس مجال حديثي في هذه الورقات. وإنما هناك أمراضٌ جديدة ظهرت حديثاً في العالم ووصلت إلى بلاد السروات وتهامة. ومن أصعبها وأخطرها مرض كورونا الجديد (Corona) الذي سمعنا ببعض أنواعه منذ حوالي عشر سنوات، مثل إنفلونزا الخنازير، والسارس (SARS)، وانفلونزا الطيور، وإيبولا ((Ebola) وجميعها أمراض تسببها الفيروسات وصار ضحيتها الكثير من الناس في العالم، وقد وصل خطرها إلى جنوب المملكة العربية السعودية، وهناك العديد من الأفراد الذين فارقوا الحياة بسبب هذه الأمراض[٢].

وكورونا الجديد (Covid-19) من فصيلة كورونا السابق ذكرها، ظهر في بلاد الصين في مقاطعة هوبي التي عاصمتها ووهان في نهاية عام (٢٠١٩م)[٣]، وبقيت الحكومة الصينية تحاربه ظناً منها أنه مرض عارض ويختفي مثل الأمراض التي سبقته[٤]، لكنه بدأ منذ شهري يناير وفبراير عام (٢٠٢٠م) ينتشر خارج الصين، ولم يأت شهر رجب /١٤٤١هـ الموافق نهاية شهر مارس ٢٠٢٠م) إلا وأصبح منتشراً في عموم الكرة الأرضية، وأصيب به أكثر من نصف مليون، ومات منه حتى بداية شهر أبريل (٢٠٢٠م) حوالي مئة ألف شخص. وكانت أوربا وبخاصة إيطاليا أكثر البلاد التي تأثرت به فقد مات فيها حتى (٣٠/مارس/٢٠٢٠م) حوالي خمسة عشر ألف نسمة، يأتي بعدها في كثرة الوفيات إسبانيا ثم الصين، ثم إيران[٥].

---

(١) إن الأوبئة والأمراض معروفة عند البشرية من قديم الزمان، وكان أهل السروات وتهامة يعانون خلال القرون الماضية من أمراض صعبة وفتاكة ومعدية مثل: الحميات، والكوليرا، والطاعون، والجدري، والسل وغيرها. هذا ما سمعته من الأوائل وقرأت عنه في بعض الوثائق، وهذه الأمراض في الماضي جديرة بالبحث والدراسة والتوثيق.

(٢) هذا ما عرفته وعاصرته منذ عام (١٤٢٧هـ/٢٠٠٧م)، ومن يبحث في سجلات وزارة الصحة السعودية يجد تفصيلات عن هذه الأمراض العالمية التي وصلت آثارها ومخاطرها إلى بلدان عديدة في المملكة العربية السعودية.

(٣) تقع هذه المقاطعة في بر الصين، ويقطنها حالياً حوالي أحد عشر مليون نسمة، ومدينة ووهان من أنشط وأكبر مدن الصين في العصر الحديث لما تمتاز به من حركة علمية واقتصادية.

(٤) هذا ما قرأت عنه، ويذكر أن هذا المرض ينتشر بين الخفافيش، ثم انتقل إلى الإنسان في بعض أسواق الطيور في مدينة ووهان، وقد يكون هناك أسباب أخرى لهذا المرض لا نعرفها في الوقت الحالي، وسوف تتضح حالة هذا المرض في المستقبل.

(٥) لن أخوض في إحصائيات الوفيات من هذا المرض (كورونا الجديد)، فكل الإحصائيات متوفرة في أراشيف الحكومات، وهيئة الصحة العالمية، وهيئة الأمم المتحدة، وسوف يصدر عنها دراسات عديدة في أنحاء العالم.

وعمري حالياً (٦٢) سنة، ولم أشاهد في حياتي مثل هذه الجائحة. وكوني أستاذاً في علم التاريخ والحضارة فقد قرأت وسمعت عن أمراض فتكت بالشعوب على مر التواريخ العربية والإسلامية والأجنبية، وصار ضحيتها ملايين البشر، لكنه لم يحدث لها دعاية وإعلام مثل ما حدث لمرض كورونا الجديد (Covid-19)، والسبب يعود إلى تسخير التقنية ووسائل التواصل المختلفة في الحديث عنه ونشر أخباره على مدار الأربع وعشرين ساعة، وكل هذه الأخبار لا تخلو من التهويل والمبالغة التي ربما خلفها أسباب سياسية واقتصادية واجتماعية خفية. وقد سمعت ذلك في حديث بعض الدول الكبيرة مثل أمريكا والصين الذين يتراشقون بالكلام، ويتهم بعضهم بعضاً في جوانب تخص هذا المرض (كورونا الجديد) وسرعة انتشاره في العالم [١].

من يقرأ ويشاهد وسائل الإعلام المحلية والإقليمية والعالمية من شهر جمادى الآخرة حتى شهر شعبان (١٤٤١هـ/الموافق شهر فبراير/٢٠٢٠م) فإنه يصاب بالذهول وأحياناً بالخوف والرعب فكل حديثها عن انتشار هذا المرض وآثاره السلبية على حياة الناس، وتوقف حركة شعوب العالم في شتى المجالات[٢]. وهذا موضوع لن أناقشه وإنما أركز حديثي على حياة الناس العامة والخاصة في جنوب البلاد السعودية كوني مهتماً برصد تاريخ وحضارة هذه البلاد، وأيضاً أرى وأشاهد ما يجري عليها منذ وصول المرض إليها حتى هذا الشهر (شعبان/١٤٤١هـ/مارس- أبريل/٢٠٢٠م).

كان الناس في هذه الناحية مثل غيرهم في المملكة العربية السعودية وفي انحاء العالم يسمعون ويشاهدون الأخبار المتتالية عن سرعة انتشار هذا المرض (كورونا الجديد)، وعندما شعرت الدولة السعودية بخطورة الأمر اتخذت العديد من الخطوات الاحترازية بدأت بنشر الوعي عند الناس ودعوتهم إلى الحد من التجمعات لأنه مرض معد، وينتقل باللمس، أو عن طريق التنفس. ومعظم الناس ظنوا أن ذلك كلام ومرض عابر فلم يلتزموا بالاحتراز والوقاية، فبدأت الدولة بأخذ العديد من الخطوات العلمية الصارمة. فأوقفت كل الرحلات الجوية، والبرية الداخلية، ثم فرضت حجراً على جميع الناس من الساعة السابعة مساءً إلى السادسة صباحاً، وإجبار كل الناس بالبقاء في المنازل خلال هذه الفترة المحددة، اللهم إلا العاملون في القطاعات العسكرية والصحية أو أي مؤسسة حكومية وأهلية لها صلة بالمشاركة في محاربة هذا المرض، ولم يتوقف الأمر عند هذه الإجراءات وإنما امتد الحجر منذ نهاية شهر رجب (١٤٤١هـ/٢٠٢٠م) على مدن

(١) هذا موضوع يستحق أن يدرس دراسة علمية تحليلية أكاديمية.
(٢) هذا أيضاً موضوع آخر سوف يدرس في آلاف المقالات والدراسات والبحوث بشتى اللغات.

الرياض، ومكة المكرمة، والمدينة المنورة من الساعة الثالثة الظهر إلى الساعة السادسة صباح اليوم الثاني. وصار الناس في جميع أنحاء البلاد ملتزمين بهذا الإجراءات، ومن يخالفها فإنه يقع تحت طائلة العقوبة المادية والبدنية[١] .

(*) وأثناء معاصرتي لانتشار هذا الوباء في المملكة العربية السعودية بشكل عام، وبلاد تهامة والسراة بصفة خاصة، فقد خرجت بالعديد من المشاهدات التي أذكرها في النقاط الآتية:

١. إن الخوف والحجر الذي فرض على الناس جعل كل أفراد الأسرة يلتفون حول بعضهم، فتراهم يجلسون ويأكلون ويتحدثون مع بعضهم طوال النهار وحتى ساعات متأخرة من الليل. وصار ينتشر على وسائل التواصل الاجتماعي من يحمد الله ويثني على معاناة زوجته في خدمة بيتها وتربيته أبنائها من خلال مشاهدته لمعاناتها والجلوس معها في هذه الظروف الطارئة. وهناك من يرسل بعض المقاطع ويتذمر ولا يريد أن يبقى في منزله مع أولاده، لأنه تعود دائما أن يكون خارج منزله. كما أن أفراد الأسرة الواحدة أصبحوا يخافون من بعضهم وبخاصة الذين يخرجون ثم يعودون إلى البيت، فربما جلبوا المرض من الخارج إلى الداخل، كونه مرضا معديا . وقد سمعت أن بعض الأفراد عزلوا أنفسهم عن أسرهم، وبخاصة العاملين في القطاعات الصحية والعسكرية، ومنهم من استأجر غرفة أو غرفا خارج منزله خوفا أن ينتقل المرض إليه من الشارع ثم ينقله إلى أبنائه وأفراد أسرته. وإذا ذهبت إلى الشارع، أو البقالة، أو أسواق المواد الغذائية، أو المطاعم وغيرها[٢]، فإنك ترى معظم الناس يلبسون القفازات في أيديهم، ويضعون الكمامات على وجوههم، ولا يسلمون على بعضهم البعض، بل ترى الخوف في عيونهم إذا قابلهم أحد خوفا من العدوى وانتقال المرض إليهم. وخفت زيارة الأقارب والمرضى وتوقفت جميع الأنشطة الاجتماعية والرياضية العامة والخاصة، كما مُنعت الصلاة في المساجد حتى صلاة الجمع وحتى تاريخ اليوم (٤/٨/١٤٤١هـ الموافق ٢٨/مارس/٢٠٢٠م)

---

(١) من خلال السماع والمشاهدة لوسائل الإعلام وجدنا أن معظم دول العالم اتخذت طريقة الحجر على جميع السكان وبخاصة من آخر النهار وطوال الليل إلى اليوم الثاني، بهدف الحد من انتشار المرض. مع أن بعض الدول اضطرت إلى الحجر على الناس معظم أوقات النهار والليل. ومع اتخاذ هذه التدابير الاحترازية إلا أن المرض حتى الآن (شعبان/١٤٤١هـ/ أبريل /٢٠٢٠م) مازال يواصل انتشاره ويحصد الكثير من النفوس في أنحاء العالم.

(٢) من ضمن الإجراءات التي اتخذتها الدولة الأمر بقفل جميع الأسواق التجارية، والمطاعم فقط للتوصيل وإعطاء الطعام للذهاب به إلى المنازل، ومنع تجمعات جميع الاحتفالات والمناسبات الاجتماعية والرسمية والأهلية، وأمرت بقفل صالات الأعراس والاحتفالات في الفنادق أو أي مكان في أنحاء البلاد.

تعطلت صلاة جمعتين في أنحاء المملكة العربية السعودية وصلى الناس ظهراً بدلاً من صلاة الجمع[١].

٢. واجهت الدولة مشكلة المدارس والجامعات التي صارت على أبواب الامتحانات، وفي البداية من شهر رجب (١٤٤١هـ/مارس/٢٠٢٠م) أبقت على الدراسة، لكن عندما تعاظم خطر المرض أمرت بقفل جميع المدارس والجامعات، وفتحت لهم برامج افتراضية على مستوى وزارة التعليم يقوم بعض المعلمين بالتدريس من خلالها لجميع مراحل التعليم العام. أما الجامعات فالأقسام والكليات أمرت بتحويل المحاضرات إلى فصول افتراضية، وظهر في البداية العديد من المشاكل التقنية لكنهم تغلبوا عليها تدريجياً، واستمر التدريس الافتراضي لجميع مراحل التعليم العام والعالي الخاص والعام. كما اتخذت الدولة خطوة إلى الأمام تجاه جميع القطاعات الحكومية والأهلية فأمرت بقفلها لمدة أسبوعين، وأكتب هذه المدونة اليوم السبت (٤ شعبان/١٤٤١هـ الموافق ٢٨/مارس/٢٠٢٠م)، ونحن في بداية الأسبوع الثاني من هذا التوقف، وقد يمدد، أو تعود المؤسسات الإدارية الحكومية والأهلية للعمل حسب ما تمليه الظروف نهاية الأسبوع[٢].

٣. نجد أن المصابين بمرض كورونا في المملكة العربية السعودية حتى بداية هذا الشهر (شعبان/١٤٤١هـ/٢٠٢٠م) تجاوزوا الألف، والمتوفون بلغوا حسب الإعلانات الرسمية ثلاث حالات. ومناطق جنوب المملكة العربية السعودية من أقل البلاد التي انتشر فيها هذا المرض، فذكرت حالات محدودة في جازان، وعسير، والباحة، وجميع هذه الحالات حسب التصريحات الرسمية لا تتجاوز العشرين حالة. وكون بعض أقاربي يعملون في القطاعات الصحية، ويباشرون حالات الطوارئ في منطقة عسير، فقد أخبروني أن مستشفى عسير المركزي صار مخصصا فقط لحالات مرض كورونا، والحالات المرضية الأخرى تم نقلها إلى المستشفيات الخاصة والحكومية في المنطقة. كما تم تجهيز العديد من

---

(١) عند المنع من ارتياد المساجد، واصل بعض الرجال ذهابهم إلى المساجد، ويقولون لن نترك الصلاة جماعة، لكن الدولة كانت صارمة في قراراتها، فأمرت بالنداء للأذان، ومنعت صلاة الجماعة في المساجد حتى المسجد الحرام والنبوي وأوقفت العمرة وحدت من زوار المسجدين، فلا يصلي فيهما إلا القائمون على المسجدين من الإمام وبعض المصلين في الحرمين.

(٢) كما ذكرت في سطور سابقة، لا أذكر أنه حصل مثل هذا الاضطراب في حياة الناس خلال الستة عقود الماضية، نعم حصل بعض الخوف والاضطراب في حياة الناس أثناء ثورة جهيمان في الحرم المكي عام (١٤٠٠هـ/١٩٧٩م)، وأثناء دخول صدام الكويت عام (١٤١١هـ/١٩٩٠م)، لكن ليست بهذه الدرجة التي يعيشها الناس على إثر انتشار مرض كورونا، فالناس الآن خائفون ومتوقفة جميع أعمالهم العامة والخاصة.

بيـوت الطلاب، والفنادق في مناطق الباحة وعسير، وجازان ونجران استعداداً لاستقبال حالات مرضية بهذا المرض[١].

٤. هـذا المرض تسبب حتـى الآن في خسائر مادية في المجـال الاقتصادي، وذلك على مستوى العالم، فمـا بالك بالمنشآت والمحلات الصغيرة فسوف تكون أكثر تضرراً. كما أن المرض نفسه سوف يخلف آثاراً نفسية على الكثير من الأطفال وربما النساء وبعض الرجال. وأيضاً تركيز جميع قطاعات الدولة على محاربة هـذا الوباء قد يتسبب في إهمال بعض الحـالات المرضية الأخرى، وبخاصة أن كثـيراً من قطاعات الصحة مثل غرف العمليات، والتخدير، والعنايات المركزة شلت حركتها لمواجهة هذا المرض، وكثير منها توقفت.

٥. واكب انتشار هذا المرض بعض الشائعات والأكاذيب التي تصدر من أناس غير مسؤولين من باب نشر الرعب والخوف بين الناس. وهذا يدل على عدم الشعور بالمسؤولية، كما أن وسائل التواصل ساهمت في زيادة نسبة هذا الجانب[٢].

٢. متغيرات اجتماعية:

لعبت وسائل الإعلام والتواصل الاجتماعي دوراً كبيراً في تغيير حياة الناس، فأصبح السواد الأعظم من أفراد المجتمع كباراً وصغاراً، نساءً ورجالاً مشغولين مع أجهزة وسائل التواصـل مثل الجوالات، والأيباد وما يستخدم من خلالهـا كالواتس، وتويتر، والسناب شات، والفيس بوك، والإنستغرام وغيرها، والإدمان على هذه الوسائل أضعفت الروابط الاجتماعيـة بـين الأفراد في المنـزل، والعمل، والجلسـات الخاصة والعامـة. كما أثرت صحيـاً على كثير من الناس فأصبحوا يعانون من أمراض في أجسادهم لم تكن معروفة مـن قبل، وبعد الفحص والبحث عن الأسباب، وجدوا إن أجهزة التواصل الآنف ذكرها هي السبب في هذه المشاكل.

ومما يلاحظ في استخدام هذه الأجهزة نقل روايات وأخبار وصور محلية وإقليمية وعالمية، بعضها غير صحيحة، أو يتخللها أحياناً خدش للحياء، ومحاربة الفضيلة، ونشر ما لا يتوافق مع النصوص والأحكام الشرعية، أو لا يتماشى مع القيم والأعراف والمبادئ التي عاشتها مجتمعاتنا في عصور ماضية.

---

(١) إن انتشار المرض في أنحاء العالم، وأيضاً تواصل وسائل الإعلام في الحديث عن خطورته جعلت جميع دول العـالم تأخـذ جميع التدابير الاحترازية، لمواجهة هذا الوباء. وقد شاهدنا الوفيات في بعض الدول الأوربية بالمئات وأحياناً بالآلاف يومياً، وهذا مما أرعب الحكومات والناس في جميع أنحاء العالم.

(٢) نلاحـظ في بعض وسائل التواصل مقاطع صوتيـة، وصور تعكس أخباراً وروايـات غير صحيحة عن مرض كورونا، وبعضها لا تخلو من الطرفة والفكاهة، وأخرى ترسل بطرق متعمدة لأسباب غير أخلاقية وإنسانية.

وإذا بحثنا عن العلاقات الأسرية التي عرفناها أو قرأنا عنها في القديم، نجدها اليوم تلاشت كثيراً، وأحياناً انعدمت، وأصبح كل فردٍ في الأسرة يعيش بمفرده مع أسرته، أو مستقلاً بحياته في منزله، وقد يكون متزوجاً أو أعزب. ونرى أفراد الأسرة الواحدة أو الأسر المتقاربة نادراً ما يجتمعون على وليمة أو وجبه واحدة، اللهم إلا في بعض المناسبات الرسمية، أما حياتهم اليومية فكل واحد منهم يعيش خصوصيته حتى مع تناول طعامه، وتكوين رفاقه وصداقاته.

ولا يشمل التفكك الأسري الرجال فقط، نعم إن نسبته عالية بينهم، لكن النساء أيضاً صغاراً وكباراً صرن يمضين في نفس الاتجاه الذي يسير فيه الرجال. وبخاصة بعد أن سُمح للمرأة بقيادة السيارة، وأصبح من حقها أن تعمل في معظم القطاعات، وتخالط الرجال وتشاركهم في شتى الأعمال المدنية والعسكرية[1].

وعندما فاض الخير على الناس، ظهرت عادة النداء بالسفر إلى الخارج بين الأسر والأفراد من الرجال والنساء. وأصبح من يتزوج حديثاً يكون من مخططاته السفر فيرصد ميزانية لقضاء الشهر الأول من زواجه في إحدى الدول الغربية أو الشرقية. بل إن بعض الأسر وبخاصة النساء يرهقن كواهل أزواجهن وآبائهن، وأحياناً يلجأن للحصول على قروض بنكية من أجل السفر إلى بعض الدول في العالم. بل ظهرت ظاهرة الفخر والتباهي بين الأسر أو الأفراد من النساء والرجال، فتراهم عند العودة من أسفارهم ينشرون أخبارهم بين أصحابهم، ويحثون غيرهم على السفر، وهذا مما يجعل أفراداً وأسراً أخرى ترهق أحوالها نفسياً ومادياً من أجل التقليد والمحاكاة لغيرهم.

وأحياناً من يسافر إلى بلد أجنبي يسخر التقنية في نقل صوره وأخباره وتحركاته إلى أصحابه، وهذا ما يعزز رغبة السفر عند الآخرين، فلا يتورعون عن جمع المال، وأحياناً الاقتراض، والحصول على إجازات من العمل من أجل السفر مثلهم مثل غيرهم، وإذا ناقشتهم ما هي الفائدة ؟ يقولون لسنا أقل وضعاً أو قيمة من آل فلان، ويذكرون أفراداً أو أسراً يعرفونهم ويقتدون بهم ويتابعون سير حياتهم.

---

(١) كانت المرأة إلى عهد قريب تعمل فقط في مهنتي التعليم والصحة، ثم سُمح لها أن تعمل في الأسواق التجارية، ومنذ شهر شوال عام (١٤٣٩هـ/٢٠١٩م) ثم السماح للنساء بقيادة السيارات كالرجال، وتسارعت الأمور حتى أصبحت المرأة تعمل في الكثير من القطاعات الخاصة والعامة. وهذا في نظري أمر محمود على شرط أن تحافظ على حشمتها وحجابها، لكن من خلال هذه الفرص التي أتيحت للمرأة أصبحنا نرى نساءً لا يلتزمن بالحجاب الشرعي، وإن قامت بعضهن بنزع غطاء الوجه، لكنهن لا يتورعن من وضع بعض أدوات التجميل على وجوههن، وهذا يتعارض مع الشرع، ومع الأعراف التي عاشتها الأمهات والجدات خلال القرون الماضية المتأخرة.

وظاهـرة الإسـراف في الأطعمـة والأشربة، عـادة ممقوتة في نظر الشـرع، وعند ذوي العقـول والألبـاب. وهذه المشكلة ليست وليدة الساعة، وإنما هي قديمة تعود إلى بدايات هذا القـرن (١٥هـ/٢٠م)، وعندما زادت الأموال والنعم عند الناس تراهم يبالغون في حفلاتهم ومناسباتهم الكبـيرة والصغيرة، ونادراً ما تجد من يحرص على الاقتصاد وتقديم الشراب والطعام الذي يؤكل ولا يرمى. والإسراف على مستوى الأسر، والنواحي، والعشائر، والقبائل، والمطاعـم التجاريـة موجود ويمارس بشكل يومي، ويجب أن يُنشـر الوعي بين الناس في هذا الجانـب، ويذكرون بالحياة التي عاشها الآباء والأجداد خلال القرون الماضية ا، بل يذكرون بالجوع والعوز والفقر الذي تعيشه بلدان كثيرة في العالم اليوم.

ويمتـد الإسراف إلى الألبسـة، وأثاث المنـازل وتزويقها وتشييدهـا، وإلى المراكب والمواصـلات وغيرها. كل هذا شاهدته في معظم مـدن وحواضر السروات وتهامة، من الطائـف ومكة إلى جازان ونجـران، بل رأيت وسمعت قصصـاً غريبة من المبالغات في شـراء بعض السيارات الجيـدة التي يبيعها صاحبهـا بمبلغ زهيد من أجـل أن يشتري سيارة ذات موديل حديث، وغالية السعر. وهذه المشكلة لم تكن عند الرجال فقط، وإنما بعض النساء بعد قيادة السيـارات أصبحن يبالغن في شراء السيارات الفارهة. ناهيك عـن تشييد المنازل وشـراء أثاثها، فهناك من يتباهى بـأدوات البناء التي أحضرها من خارج البلاد، أو الأثاث من المطابخ، والكراسي، والطاولات، والسجاد، والستائر وغيرها التي بلغت تكاليفها مئات الآلاف من الريال [١].

لا تخلـو بعض المجالـس العامة والخاصة مـن الإفراط في الحديـث، وأحياناً يتخللها الروايات والأخبار التي تفتقر إلى المصداقية وقول الحقيقة. وربما يشوبها المزاح والأقوال التـي توبق صاحبها في الذنب والتجاوز، والوقوع في اللغـو، والغيبة وأعراض الناس. وربما وقـع القائل في شـيء من العنصرية والتعصب لناحية، أو قضيـة، أو أمر ما. كما أن بعض المجالس والتجمعات لا تخلو من ممارسة بعض الألعاب أو الفنون أو النشاطات الاجتماعية التي توقع فاعليها والقائمين عليها في أخطاء شرعية وأخلاقية [٢].

---

(١) لا أقول أن كل أهل السروات وتهامة مبالغون في بناء بيوتهم وتأثيثها، أو شراء سيارتهم، فهناك الكثير من الأسر والأفراد المقتصدون في حياتهم، وآخرون، أرجو أن يكون قلة، يبالغون بشكل كبير جداً في مراكبهم وما تحتويه منازلهم من بناء وتأثيث.

(٢) إن وسائل الإعلام والتواصل وانفتاح العالم بعضه على بعض جعل مثل هذه الجوانب مقبولة وممارسة عند كثير من الناس، وربما بعضها تتعارض مع تعاليم الشريعة الإسلامية، ومع الأعراف والقيم والتقاليد التي عاشتها أجيالنا السابقة.

٣. متغيرات تعليمية وثقافية :

كانت جنوب السعودية تسير بخطى جيدة في الحياة التعليمية والثقافية منذ العقدين الأولين في هذا القرن (١٥هـ/٢٠م)، ثم تسارعت الأنشطة العلمية والتعليمية في شتى الجوانب، وجاء عام (١٤٤٠هـ/٢٠١٩م)، وإذا بالبلاد مليئة بالمدارس الحكومية والأهلية لكل مراحل التعليم العام ذكوراً وإناثاً)، وأصبح هناك حوالي ست جامعات من مكة المكرمة والطائف إلى جازان ونجران يدرس فيها عشرات الآلاف من الطالبات والطلاب، ناهيك عن برامج الدراسات العليا في هذه الجامعات فهي الأخرى تؤدي رسالة جيدة لطالبات وطلاب درجات الدبلومات العليا، والماجستير، والدكتوراه. وهناك مؤسسات الثقافة كالأندية الأدبية، وجمعيات الثقافة والفنون، والمنتديات العلمية والخاصة، والصحف الورقية والإلكترونية، ومراكز التدريب في مجالات عديدة، ويصعب حصرها في هذه الصفحات المحدودة. ويقوم ويشرف على كل هذه المؤسسات والمناشط العلمية آلاف الأساتذة والمشرفين والإداريين ومعظمهم من السعوديين، وغير السعوديين وبخاصة في الكليات والأقسام الأكاديمية في الجامعات المحلية.

وكوني أسير في مناكب بلاد السروات وتهامة منذ بداية هذا القرن (١٥هـ/٢٠م)، وأقوم برصد الحراك الثقافي والمعرفي في هذه البلاد. وفي عامي (١٤٤٠-١٤٤١هـ/٢٠١٩-٢٠٢٠م)، تجولت أيضاً في أرجاء هذه البلاد لرصد صور من تاريخها الحضاري المعاصر، وقد لفت نظري هذا التطور والتوسع الكبيرين لنشر شتى المعارف في هذه الأوطان، وهذا مما أدى إلى رفع مستوى المواطن في باب العلم والثقافة وما تعيشه بلدان تهامة والسروات في وقتنا الحاضر (١٤٤١هـ/٢٠٢٠م) يستحق أن يدون في عدد من الكتب التوثيقية. أرجو من الجامعات المحلية أن تدعم وتشجع مراكزها البحثية وأقسامها الأكاديمية على توثيق وحفظ هذا التاريخ المعرفي، مع دعم هذا التوثيق بالوثائق والصور الفوتوغرافية.

وقد أثرت الشبكة العنكبوتية (النت) على تسريع نشر العلوم والثقافات المحلية، والإقليمية، والعالمية. وأصبحت مؤسسات التعليم في المملكة العربية السعودية وبخاصة الجامعات تتنافس في استخدام النت وتحويل الكثير من برامجها إلى أعمال افتراضية ليس في مجال العلم والمعرفة والثقافة فحسب، وإنما في قطاعاتها الإدارية، والمالية، والاجتماعية، والاقتصادية وغيرها[1].

---

(١) أقوم منذ فترة على جمع تاريخ التعليم العالي في جنوب المملكة العربية السعودية، واطلعت على الكثير من القرارات والوثائق في جامعات عسير، وجازان، والباحة، ونجران فوجدتها تعمل جاهدة على تسخير الشبكة العنكبوتية في جميع أعمالها الأكاديمية والإدارية والمالية.

ويدخل ضمن هذه المتغيرات المعرفية اتفاقيات الشراكة والتعاون بين إدارات التعليم والجامعات في بلاد تهامة والسراة. وجمعت عشرات الوثائق التي تؤكد جهود هذه المؤسسات في هذا الاتجاه. والجميل أن الجامعات المحلية لم تكتف بالشراكات المحلية، لكنها انخرطت أيضاً في عشرات الاتفاقيات والشراكات الإقليمية والعالمية [١].

وأصبحت جامعات الجنوب السعودي لا تقصر جهدها على استقطاب الطالبات والطلاب السعوديين وبعض المقيمين، لكنها منذ ثلاثة أعوام (١٤٣٩-١٤٤١هـ/٢٠١٨-٢٠٢٠م) سعت إلى فتح المجال بشكل كبير للطلاب من أنحاء العالم وبخاصة من قارات إفريقيا وآسيا، ويدرس فيها الآن الكثير من هؤلاء الطلاب الذين حصلوا على منح دراسية وبخاصة في برامج الماجستير والدكتوراه في عدد من العلوم النظرية والعلمية[٢].

٤. متغيرات اقتصادية :

إن الذاهب في أرجاء مناطق الباحة، وعسير، ونجران، وجازان، والسهول الساحلية من جازان إلى مكة يلاحظ طفرة اقتصادية وبخاصة في الحياة التجارية، فهناك مئات الأسواق الكبيرة والصغيرة، التي يعمل فيها عشرات الأيدي العامل من النساء والرجال، سعوديون وغير سعوديين. كما يلاحظ توفر جميع السلع لكل مجالات الحياة العامة والخاصة. وتأتي البضائع الصينية على رأس قائمة السلع المتوفرة في الأسواق، والمتنوعة في أسعارها، وأشكالها، وطرق استخدامها.

وتشمل التجارة العقارات [٣]، وتصدير واستيراد البضائع، وطرق نقلها، وتلعب البنوك طوراً في تنشيط الحياة الاقتصادية عن طريق منح القروض للأفراد والمؤسسات الحكومية والأهلية. كما لا تخلو البلاد من حركة صناعية ومهنية تتمثل في المدن الصناعية والاقتصادية المتناثرة في أماكن عديدة من بلاد السروات وتهامة[٤].

---

(١) هذا ما تأكد لي عندما اطلعت على الكثير من وثائق ومجالس جامعات الملك خالد ونجران، والباحة، وجازان، وبيشة خلال الأعوام الثلاثة الماضية (١٤٣٩-١٤٤١هـ/٢٠١٨-٢٠٢٠م).

(٢) زرت جامعات الباحة، والملك خالد، ونجران، وجازان خلال (١٤٤١هـ/٢٠٢٠م)، وشاهدت الكثير من هؤلاء الطلاب الدوليين الذين يدرسون في هذه الجامعات، كما حضرت بعض الاحتفالات الاجتماعية في هذه الجامعات ومن ضمن فقرات تلك المناسبات تكريم هؤلاء الطلاب الدوليين. وهذه من الخطوات الموفقة التي سلكتها وزارة التعليم، وفتح الباب لطلاب دوليين يدرسون في جامعاتها، وهذا مما يرفع جودتها العلمية والمعرفية.

(٣) نجد العقارات تراجعت قليلاً منذ عدة سنوات وبخاصة إذا قارناها بعصر الملك عبدالله بن عبدالعزيز آل سعود (١٤٢٦-١٤٣٦- ٢٠٠٥ - ٢٠١٥م) .

(٤) كل هذه المجالات تستحق أن تدرس في عدد من الرسائل والكتب العلمية.

وتراجعت الزراعة في السنوات الأخيرة، وتم تحويل الكثير من الأراضي الزراعية إلى مخططات تجارية وسكنية. وكثير من الأراضي الزراعية في المدن والقرى أهملت وتركها أصحابها، وصاروا يعملون في مهن اقتصادية أكثر فائدة وربحية، ومنهم من التحق بالوظائف الحكومية وترك مهنة الزراعة التي كان يمارسها الآباء والأجداد[١]. وجرى الأمر نفسه على مهن الرعي، والصيد، والجمع والالتقاط فهي الأخرى تراجعت، وبعضها اختفى ولم نعد نرى من يمارسها[٢].

٥. لمحة من جهود الأمير تركي بن طلال آل سعود في تطوير منطقة عسير:

كانت أول مرة أقابل الأمير تركي بن طلال آل سعود في بدايات عام (١٤٣٩هـ/٢٠١٨م)، فقد دُعيت من قبله إلى حضور اجتماع تشاوري عن تراث وحضارة منطقة عسير، وكان ذلك الاجتماع في منتزه الجرة [٣]، من الساعة (٧-١٢) مساءً، وحضر في ذلك اللقاء حوالي عشرة أشخاص من أساتذة جامعة الملك خالد وبعض المثقفين في منطقة عسير[٤].

وعند الجلوس مع هذا الأمير وجدته متواضعاً في حديثه ومجلسه، وهو على ثقافة علمية عالية وبخاصة في التاريخ، والأدب، واللغة العربية، وبعض العلوم النظرية والعلمية الأخرى، وهذا ما تبين لي في أطروحاته، ونقاشاته المتنوعة. وفي ذلك اللقاء سمع من الجميع في كل ما يتعلق بكيفية الحفاظ على التراث العمراني في منطقة عسير، وعرج للحديث عن بعض الآثار السطحية والمدفونة في المنطقة، وكيفية الاستفادة منها في توثيق تراث وتاريخ هذه البلاد وبخاصة في العصور القديمة، والقرون الإسلامية المبكرة والوسيطة [٥].

---

(١) بدأت الزراعة في بلاد تهامة والسراة تتراجع منذ بداية هذا القرن (١٥هـ/٢٠م)، ولم يأت عشرينيات القرن نفسه، إلا ومهنة الزراعة اندثرت أو تلاشت في مواضع كثيرة من جنوب المملكة العربية السعودية.

(٢) إذا كان هناك من يمارس مهنة الرعي فهم قلة في عموم السروات وتهامة، ومن يسعى إلى امتلاك المواشي والإبل، ثم يحجرها في حظائر ويقوم على إعلافها، وإن كان هناك من يمارس الرعي في البوادي فهم أيضاً نسبة قليلة، مقارنة بالقرن (١٤هـ/٢٠م) الذي كانت تمارس فيه هذه المهنة بشكل واسع.

(٣) تلك أول مرة أدخل منتزه الجرة في شعف شهران، فهو مغلق منذ بداية هذا القرن (١٥هـ/٢٠م)، ولا يدخله أحد إلا بتوجيه من إمارة منطقة عسير. وهذا المنتزه مكتظ بأشجار العرعر، والغابات الكثيفة.

(٤) كنت خلال العشر سنوات الماضية أسمع عن هذا الأمير (تركي بن طلال آل سعود) يتردد على منطقة عسير، ويخيم في بعض نواحيها لعدة شهور من كل عام. وأكثر الأمكنة التي يرتادها : مدينة تنومة في سروات بني شهر، وأجزاء من سروات بللسمر، وشعف شهران، وربما هناك أمكنة أخرى في سروات منطقة عسير لا أعرفها.

(٥) لقد سعدت بهذا اللقاء الأول، عندما سمعته يدعم ويشجع حفظ تاريخ وموروث سروات وتهامة منطقة عسير. وذلك لأنني أبحث وأنقب عن تاريخ بلاد السروات وتهامة منذ أربعين عاماً، وأعرف أنها لم تُخدم في ميدان البحث والتوثيق، وهي ذات تاريخ وحضارة تعود إلى عصور ما قبل الإسلام، وتستحق من أهلها وأبنائها من يخدمها ويدرس موروثها الحضاري.

وبعد ذلك اللقاء الأول وجه بدعوتي إلى حضور أربعة لقاءات علمية متباعدة، كان أولها في مخيمه بمنتزه الشرف في محافظة تنومة عام (١٤٤٠هـ/٢٠١٩م). والثاني في قصر أبها، والثالث في مقر هيئة تطوير منطقة عسير في أبها الجديدة، والرابع في مكتبه بإمارة منطقة عسير. واللقاءات الثلاثة الأخيرة في الفترة من نهاية عام (١٤٤٠هـ/٢٠١٩م) إلى شهر جمادى الآخرة عام (١٤٤١هـ/٢٠٢٠م).

(*) لن أفصل الحديث عما دار في تلك اللقاءات، لأن ذلك سوف يبسط في دراسة منفصلة، لكنني أدون بعض الانطباعات والرؤى التي خرجت بها مما شاهدت وسمعت وقرأت عن جهود هذا الأمير في خدمة الأرض والناس في منطقة عسير، وهي على النحو الآتي:

١. في جميع اللقاءات الأربعة الآنف ذكرها، كان يوجه لي العديد من الأسئلة التي تدور في فلك التاريخ العربي والإسلامي بشكل خاص، ومنطقة عسير بشكل عام. وعندما يتحدث المتحدث تجده يجيد الانصات، وإذا داخل في الحديث فإنه يوضح مبهم، أو يستفسر عن معلومة أو قضية محددة، وإذا عارض المتكلم فيذكر سبب اعتراضه، وأحياناً يصحح معلومة، أو يبحث عن إجابة غامضة. وإن سمع روايات محددة واقتنع بها أبدى موافقته ولا يتورع أن يصدر عن رأيه إذا اقتنع بما يسمع، أو تأكد من مرويات المتحدث. واذكر مما سألني عنه، رأيي عن تاريخ الدولة العثمانية، ورأيي عن إمارة آل عائض في عسير، وعن تاريخ سوق الثلاثاء في أبها، وتاريخ بعض الأسر العلمية في عسير، وتاريخ بعض المشيخات القبلية في سروات وتهامة عسير. وكنت في كل مرة أجيبه بكل حيادية وشفافية، ووجدته يحترم المصداقية والحيادية، ويؤكد على النزاهة والإنصاف في كل ما يقال أو يدون[١].

٢. وجدت هذا الرجل الأمير يمتاز بقدرة فائقة في ذاكرته، وحركته، ونشاطه، واهتماماته في خدمة أرض وسكان منطقة عسير دون تمييز أو تفرقة. ولاحظت في خطاباته وكلماته ولقاءاته المختصرة أنه يحرص على سريان العدالة والإنصاف بين الناس، وقد سمعته يوجه ويأمر بذلك في معاشر القضاة،

(١) جالست الكثير من الأعلام الكبار داخل المملكة العربية السعودية وخارجها، ووجدت هذا الأمير متفرداً في عدد من الصفات الإيجابية، التي تجعل من يجالسه أو يصاحبه فخوراً بهذه الرجل العربي الأصيل في أقواله، ومبادئه، وأفعاله.

والمحامين، والمعلمين، والمديرين والموظفين وشرائح أخرى عديدة في المجتمع العسيري[١].

٣. لا يتورع هذا الأمير عن التدخل بجاهه ومكانته لإصلاح ذات البين، أو السعي في أمر يقرب وجهات النظر والدعوة إلى تأليف القلوب، ولا يدخل في هذه الأمور على أنه رجل مسؤول في الدولة، وإنما إنسانيته وتربيته ونخوته ومروءته هي التي تدفعه إلى السير في هذا النهج القويم[٢].

٤. رأيت الأمير تركي بن طلال يحرص على مساعدة الضعفاء والمحتاجين فيقضي حاجاتهم، ويحل مشكلاتهم. كما أنه يخدم من يطلب وجهه وجاهه فلا يتورع أن يسمع إلى من يشتكي إليه، ويطلب العون منه، ولا يتأخر عن حل مشكلة من يلجأ إليه حتى لو تطلب الأمر أن يذهب بنفسه مع الشاكي أو المحتاج لتحقيق مطلبه، وحل معضلته[٣].

٥. نعم الأمير تركي بن طلال من بيت آلِ سعود العريق في مجده وتاريخه، لكنه متواضع في كل سلوكياته وأعماله. فأحياناً يذهب إلى الأماكن العامة لمراقبة أحوال الناس. ويزور المدارس والمستشفيات والكثير من القطاعات الحكومية والأهلية في منطقة عسير لمعرفة سير العمل فيها، وحل المشكلات التي تواجه القائمين عليها، وتفقد جودة الخدمة والعمل فيها. وفي الزمن القصير الذي قضاه أميراً حتى الآن بمنطقة عسير، نجد هناك عشرات الأمثلة التي تعكس نشاط وحرص وشخصية هذا الأمير الجاد والمجتهد في خدمة دينه ومليكه وبلاده.

٦. الحديث عن جهود الأمير تركي بن طلال آل سعود في تطوير منطقة عسير، وخدمة أهلها تحتاج أن تدون في عدد من البحوث والدراسات العلمية الموثقة. وسبق أن ذكرت لسموه العمل على تأسيس أرشيف في الإمارة يجمع ويوثق كل ما يصب في خدمة البلاد وتطويرها. ولا أدري ماذا فعل في هذا الاقتراح، لكنني أحثه من على صفحات هذا الكتاب أن لا يتأخر في أرشفة كل ما يدور

---

(١) هذه الأقوال والشهادات أدونها لأنني مقتنع ومتأكد مما رأيته وسمعته بشكل مباشر، ولا يشوبها أي مجاملة أو مداهنة أو محاباة أو تدليس، وإنما هذه حقائق صحيحة.

(٢) يظهر على الأمير تركي بن طلال أنه تربى على القيم والمبادئ الحسنة التي تعلمها من دينه، ودرسها في مدارس آبائه وأجداده آل سعود، وكذلك أخواله أسرة العنقري (العناقرة) ذات الشهرة والصيت الحسن.

(٣) هناك الكثير من الأمثلة التي تؤكد قولي ومعظمها موثقة بالصوت والصورة في وسائل التوصل، وفي العديد من السجلات والوثائق الرسمية.

في فلك تاريخ وتطوير المنطقة، وذلك أمر يسير لا يلزم وجود متخصصين أو أناس ذوي خبرة علمية أو أكاديمية، وإنما يحتاج الأمر إلى موظف أو موظفين نابهين يقومان بجمع وأرشفة وتوثيق كل ما يدور في المنطقة من حراك حضاري وتنموي، وقد لا يكون ذلك ذات أهمية في وقتنا الحاضر، لكن ما يتم أرشفته وجمعه في مستودعات معرفية سوف يخدم المؤرخين والباحثات والباحثين.

وللأسف إن ثقافة الأرشفة والتوثيق في مؤسساتنا الإدارية الحكومية والأهلية ضعيفة، وأحياناً غير موجودة، وهذا ما عرفته أثناء زيارتي للكثير من الأراشيف في طول البلاد وعرضها منذ بداية هذا القرن (١٥هـ/٢٠م). أرجو من هذا الأمير الماجد أن يأخذ بهذا الاقتراح الآنف ذكره، ويوظف التقنية في القيام بهذا الجانب المهم، وإن عمل ذلك فلن يخسر أو يندم على ذلك. (والله من وراء القصد).

ثالثاً: وفي النهاية:

أدرجت في هذه الصفحات نفثات مؤرخ شاهد وعاصر بعض المتغيرات الحضارية في أجزاء من جنوب المملكة العربية السعودية خلال عامي (١٤٤٠هـ-١٤٤١هـ/٢٠١٩-٢٠٢٠م). وبعض هذه المتغيرات وآثارها حديثه عهد مثل مرض كورونا (Covid- 19). وهناك تحولات أخرى تعود إلى الوراء بضع سنوات، لكنها مازالت سارية في المجتمعات الجنوبية السعودية. والهدف من الإشارة إلى المادة المرصودة في هذه الورقات هو إحساس المؤرخ بما يجري حوله، وله تأثيرات سلبيه أو إيجابيه على الأرض والناس، وذكر بعض الأحداث التاريخية المعاصرة التي ربما تفيد القراء والباحثين في قادم الأيام فتدرس دراسات علمية عميقة وموثقة. وما تم تدوينه ليس محصوراً في منطقة عسير وما جاورها فحسب، وإنما هي روايات مترابطة مع أحداث ومتغيرات أخرى محلية، أو إقليمية، أو عالمية. والواجب علينا معاشر الدراسين والباحثين أن نوثق ونحفظ شيئاً من تاريخ وحضارة بلادنا عبر أطوار التاريخ. وتاريخنا المعاصر يستحق التوثيق ليطلع عليه الأبناء والأحفاد.

خامساً: خلاصة آراء ووجهات نظر:

اشتمل هذا القسم على ثلاث دراسات، هي:

(١) صفحات من تاريخ التعليم والفكر والثقافة في محافظة بيشة خلال القرن الهجري الماضي، والعقود الأربعة الأولى من هذا القرن (١٥هـ/٢٠م). (٢) إشارات لبدايات الدراسات العليا في كلية التربية للبنات بأبها، وجل مادة هذه النبذة مستقاة